احتكاك الحضارات

للاستاذ محمد محمد علي

منذ ظهر الإنسان على وجه الأرض وهو دائم الحركة لا يقر له قرار ، إذ دأب على الهجرة والارتحال ، مما أدى إلى انتشار الأجناس البشرية وتعميرهم مختلف بقاع هذا الكوكب . وهو من الحيوانات القلقة ولكن ليس تقليديه اليا . فإذا ما انتقل من بيئته إلى أخرى فإنه لا محالة ناقل معه مظاهر حضارته وتقاليده . وكما يحدث تزاوج بين الأجناس واختلاط بين العناصر ، كذلك يحدث امتزاج بين الثقافات واحتكاك بين الحضارات ، نتيجة الأخذ والعطاء ، وتبادل الآراء . وحركة الإنسان هذه لها فائدة مشتركة ؛ فانتقاله إلى بيئة جديدة يمكن هذه البيئة من الاستفادة منه ، كما يستفيد هو الآخر منها ، إذ ينقل إلى موطنه بعض مظاهر الحضارة الجديدة .

ولقد تقدمت حركة الإنسان على مر الزمن ، فتدرجت من مجرد هجرات سلمية إلى غزوات حربية وفتوحات استعمارية على أشكال شتى وألوان متباينة . وتبع هذا التطور في الحركات : تطور في الاحتكاك الذي ساعد على شدته وتعقده في الأزمنة الحديثة سهولة المواصلات وظهور المخترعات وانتشار الصحافة وغير ذلك . فلم تعد هناك عزلة بين الحضارات .

والكلام في هذا الموضوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الطرق التي يتم بها احتكاك الحضارات ، ثم النتائج التي تنجم عن ذلك ، وأخيرا أمثلة من اتصال العرب بالشعوب الأخرى بعد انتشار الإسلام ، واحتكاك الأوربيين بالجماعات البدائية : الإسكيمو في الشمال وزنوج البانتو في الجنوب ، وأخيرا لمحة عن الذي حدث بين الشرق والغرب في الماضي والحاضر .

وسائل الاحتكاك

ليس احتكاك الحضارات أمرا مقصورا على الماضي ، ولكنه ظاهرة مستمرة على مر العصور (١) . ويرى الأستاذ دنكن (٢) أن الاحتكاك بنوعين من الطرق : طرق منظمة

1. Rivers : Psych logy and Ethnology : 1926. P, 300
2. Duncan : Race and population problem. 1929, p. 157

ما أوتي من بسطة في العيش — ولم يكن يحفل بمنصب يناله ، ولا بجمال زائف غير جمال الحقيقة ؛ حتى لقد آثرها على جمال التي هوى بيتها . ولم يغفل ديكارت الصدى المرالذي ترده مأساة جاليليو، فآثر الحيطة في كل ما يقول ويكتب ، ولكن ألم يذكر حقا غير الأخلاق الموقوتة التي ذكرها في المنهج لأنه لم يكن قد انتهى بعد من إقامة هيكل العلوم ؟

الحق أن ديكارت اتخذ من الأخلاق الموقوتة سكنا موقوتا حتى يتم له هدم القديم لبناء الجديد . فهل تم له الهدم والبناء . وإذا لم يكن ذلك فكيف كتب هذه البحوث المستفيضة في الأخلاق ، وهو لم ينته بعد من العلوم التي افترض وجودها قبل الأخلاق ؟

الواقع أن ديكارت اضطر إلى ذلك اضطرارا . أولا ليرضي رغبة الأميرة . وثانيا ليظهر مجهوده الاخلاقي قبل أن تعاجله المنية فتخرج فلسفة التاريخ مبتورة من عضو هام هو الأخلاق . وكل فيلسوف — فيما نعلم — لا بد أن يردف الأخلاق بالسياسة فأين السياسة من فلسفة ديكارت؟ الجواب على ذلك معد ، وهو أنه لم يرد إلا أن ينبه الأذهان في رفق إلى فساد استغرق العصر دون أن يمكر مزاجه ويجرح هدوءه صخب الدنيا ، فضلا عن نداء المجازر والمشانق لكل متمرد ثائر .

من أجل هذا اطمأن صاحبنا الى « منزله المؤقت » المبني على قواعد ثلاث هي : —

١ — طاعة قوانين البلاد واحترام عوائدها ، والثبات على ديانتها في اعتدال أجمع عليه أعقل المعاصرين .

٢ — الثبات في العمل ، وتجنب الشك والتردد في السياسة

٣ — مغالبة النفس التي لا تقدر إلا على أفكارها إذ لا تحكم لنا في الأقدار . وهي أخلاق لها أهميتها — كما يقول « مزنار » Mesnard (١) لأنها تمكن النفس من الاستمرار في البحث عن الحقيقة في أمان ، والاستمرار في كسب العلوم ، ثم هي تكفي الأخلاق المضطربة التي تمثل معنا كل الحياة العملية في كل لحظة .

محمد محمود زيتون

1 Essai sur la morale de Descartes

وأخرى غير منظمة ،

الطرق المنظمة: يمثلها التبشير والتجارة والاستعمار والحروب.

١ — المبشرون

ويرتبط تأثيرهم بالنواحي الدينية والروحية . وتعتبر المسيحية أكثر الأديان تبشيرا . ويقال إن السبب في إرسال المبشرين هو القضاء على الوثنية ونشر المسيحية . والذي يحدث في الواقع هو إحلال الحضارة الأوربية الغربية محل الحضارة الأهلية البدائية . فيعقب وصول المبشرين تغيرات في الملبس والمسكن والعادات والتقاليد واللغة ، ذلك لأن المبشر يعمل على تعليم الناس لغة قومه قراءة وكتابة . وينظر الأهالي إلى المبشرين أول الأمر على أنهم إنما يأتون أعمالا غير شرعية . لكنه سرعان ما تنبذ التقاليد القديمة وتنتشر النظم الجديدة التي يعتمد انتشارها اعتمادا كبيرا على مدى تذوق الأهالي لها . وكثير من القبائل في جنوب افريقيا وجزيرة مدغشقر ونيوزيلند قد تحسنت أحوالها على أيدي المبشرين (١) . ولقد كان للغرب في الشرق منذ زمن بعيد رهبان ومبشرون يعلمون أبناءهم مبادىء العلوم واللغة القومية مع إحدى اللغات الغربية ، وجعلوا من بيروت أس حركاتها ، يبثون في عول النشء المبادىء التي رأوا فيها مصالح أممهم الدينية (٢) . وتقوم الإرساليات الأمريكية بقسط كبير في التبشير الديني .

٢ — التجار

يأتي التجار غالبا في إثر المبشرين . ومع أن التاجر يكون عدوا للمبشر إلا أن الاثنين يعملان معا على نشر الحضارة الجديدة ؛ فالمبشر يعمل على محو الوثنية ونشر المسيحية ، وأما التاجر فيبيع السكاليات مثل الشاي والسكر والأسلحة للأهالي . على أن البضائع التي تباع للأهالي هي من أحط الأصناف (٣) وفي الواقع يلحق التجار كثيرا من الضرر بالسكان ، فمثلا حملوا جماعات الاسكيمو على احتساء القهوة وتناول الخبز واستعمال الطباق ، وتعلقوا بها حتى إنهم اضطروا إلى بيع الجلود التي هم في حاجة إليها — لكي يحصلوا على هذه المواد ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى الجلود الأمر الذي أدى إلى سوء الأحوال (١) . وفي ساحل الذهب بغرب افريقيا استطاع التجار أن يحصلوا على الكاكاو — أهم غلات هذا الاقليم — وذلك مقابل إعطائهم الخمور التي ولع بها الزنوج لذلك قال وكلدوكوت Caldecott (٢) « إن المسيحية لم تر في التوسع الأوربي عاملا مساعدا بل وجدته معرقلا لها . » وليس من شك في أن الربح من التجارة كان أساس احتكاك الأوربيين بغيرهم . ويحدث عادة انقسام بين الأهالي إزاء البضائع الجديدة ، فمنهم من يقبل عليها ومنهم من يحجم عنها . ويتوقف نجاح التجار على مدى إحاطتهم بعادات أهل البلاد وتقاليدهم (٣) والقاعدة العامة أنه كلما كان التجار أسمى حضارة كان تأثيرهم قويا ، حتى ولو كانوا قليلي العدد . مثال ذلك : العرب في الملايو ، إذ استطاعوا أن ينشروا الثقافة الاسلامية في هذه الأصقاع رغم قلة عددهم — ولو أن التأثير الجنسي كان ضئيلا بالطبع .

٣ — الاستعمار

وهو انتقال جماعة من الناس من موطنهم الأصلي إلى منطقة أخرى بقصد السيطرة عليها واستغلال مرافقها أو الاقامة فيها . وقد يكون الباعث اقتصاديا أو سياسيا أو هما معا . ولقد كان لمعظم الدول الأوربية نصيب في استعمار المناطق البدائية . وحيثما حل المستعمرون فإنهم ينشرون حضارتهم . ويعتبر محل إقامتهم مركزا للمبشرين والتجار (٤) . وكثيرا ما يحدث امتزاج بين حضارتي المستعمرين والأهالي ، أي أن كلا من الطرفين يستفيد من صاحبه؛ فقد أخذ الأمريكيون عن الهنود كثيرا من أسماء المدن والأنهار ، وفي لغتهم كلمات هندية كثيرة . وإن جزءا كبيرا من غذاء الأوروبيين مأخوذ عن الهنود ، حتى قال أحدهم : « لو أننا حذفنا من الأوربي كل الأصول الهندية فإن ذلك يترك ثغرة كبيرة . ولولا الاتصال الدائم بالوطن الأصلي لحدث

---

١) يلاحظ أن هذا زعم الأوربيين ولعله لا يخلو من المبالغة

٢) الأستاذ محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية : ١٩٣٤ ج ١ ص ٣٥٠

3. Duncan,p. 162

1- Brown , Teh polar Regions,1927 ,p,156

2- Duncon,p,164 3. Vidal adle Blache principles of human geography, 1926,p,338 4- Duncan' p, 168

التشابه التام بين الحضارتين (١) . « وأحيانا يحتفظ المستعمرون بمقومات حضارتهم ويعزلونها عن الأهالى فلا يختلطون بهم؛ ولكن هـذا الأمر لا يطول . ويتميز الاستعمار الحديث بميزة سوداء ، ألا وهى إبادة كثير من العناصر الأصلية ، هذه الإبادة على ثلاثة أشكال .

ا ـ إبادة مباشرة : وهذه تتم بالقتل كما حدث فى تسمانيا

ب ـ إبادة غير مباشرة : وذلك بتسليمهم الأسلحة التى يجهلون استخدامها فيقتل بعضهم بعضا ، أو نشر الأمراض كما حدث بين الاسكيمو .

جـ ـ إبادة هادئة لطيفة باسكانهم فى المناطق غير المنتجة كما فى استراليا أو ضمهم فى حظائر ـ كما عومل الهنود فى جنوب افريقيا .

وإذا نظرنا إلى أعمال الدول الكبرى يمكن القول إن للاستعمار سياستين (٢) : سياسة التلاشى داخل الوحدة وهـذه سياسة الدول اللاتينية وعلى رأسها فرنسـا ، وتعمل على فرض حضارتها بشىء من القوة مع القضاء على الأصلية وسياسة التنوع داخل الوحدة وهى سياسة الدول السكسونية وفى مقدمتها انجلترا ، وتحاول ايجاد نوع من الاحتفاظ بالشخصية ويكون ذلك فى الناحية الدينية غالبا مع ابقاء الأمور الاقتصادية تحت سيطرتها توجهها كيف شاء لها الهوى . وليس من شك فى أن هذه السياسة أكثر تضليلا ، على أن الأهالى قد يقاومون أو قد يرضخون .

٤ ـ الحروب

للحروب أثر كبير فى احتكاك الحضارات ، إذ أن كلا من الفريقين يستفيد من صاحبه . وقد أدت حروب الاسكندر الأكبر إلى وقوع احتكاك بين التيارين الثقافيين فى الشرق والغرب . وكانت خطة الاسكندر هى إقامة وحدة حضارية عالمية قائمة على الحضارة اليونانية ، والسبيل إلى ذلك إنشاء مراكز ثقافة تدرس فيها علوم اليونان وتحكم بنظمها ، فكانت الاسكندرية من أعظم المراكز الثقافية التى يشع منها نور الحضارة الاغريقية .

ويختلف الكتاب فى مدى احتكاك المغلوبين والغالبين :

1, ibid. P. 170

٢) محاضرات الدكتور عباس عمار فى الجغرافيا الجنسية بقسم الجغرافيا عام ـ ٦٤ ـ ١٩٤٧

فيرى ابن خلدون (١) أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحله وسائر أحواله ، ذلك لأن المغلوب يعتقد الكمال فيمن غلبه ، فالغالب انتحل من العوائد والمذاهب ما أوصله إلى الكمال ، فمكنه ذلك من الغلب ، فإذا اقتدى المغلوب بالغالب فإنه يبلغ درجة الكمال التى تمكنه من أن يغلب الذى غلبه . ولكن قد يحدث أن يحتفظ الغالب بمظاهر حضارته ويأنف من الاختلاط بالمغلوب كما فعل العرب فى مصر أول الأمر لكنها هذه العزلة لا تستمر طويلا . أو أن يحتفظ المغلوب بمقومات حضارته كراهية منه للغالب كما فعل المصريون مع المكسوس والفرس .

ويرى الأستاذ ريفرز (٢) Rivers أنه كلما كانت حضارة المغلوبين راقية كان التأثير عليهم بطيئا بسيطا . والفرق عظيم بين تأثير الأوربيين فى الهند والصين وبين تأثيرهم على العناصر البدائية التى تتأثر بسرعة لأنها أسلس قيادا وأكثر طواعية .

وترى مس سمبل (٣) Semple أنه إذا كان الغزاة أسمى حضارة — حتى ولو كان عددهم قليلا — فإن الغزو يتمخض عن اندماج المغلوبين تدريجا مع الغزاة : فى النظم الاقتصادية ومختلف نواحى الحياة ، مع التسليم بتأخر الاندماج فى النواحى الروحيـة . فقد استطاع الاغريق أن يصبغوا شرق البحر الأبيض المتوسط بالصبغة الاغريقية ، وتمكن العرب من نشر الثقافة الاسلامية فى سواحل شرق افريقيا حتى موزنبيق مع قلة عددهم هناك ، وذلك لارتفاع مستوى حضارتهم وسموها .

وقد استفاد الشرق والغرب استفادة عظيمة من الحروب الصليبية (١) إذ عرف الصليبيون صنائع أرقى من صنائعهم ، وحبب إليهم تسامح المسلمين الهجرة والترحال فربطوا صلات تجارية مع الشرق . وارتفع عن أذهان الغربيين ما كان دسـه رؤساؤهم الدينيون عن الاسلام حتى عاد بعضهم يشرح المعتقدات الاسلامية بضبط ودقة ، كما استفاد المسلمون كثيرا من ذلك .

البقية فى العدد القادم

محمد محمد على
ليسانسيه فى الآداب

١) مقدمة بن خلدون بيروت ١٩٠٠ ص ١٩٤٧

١) فى كتابه : Ipsychology x Ethnology, p 300

(٢ فى كتابها foluences of geographic enVironment 1937 pp 83,74

١) راجع تفصيل ذلك فى كتاب الأستاذ كرد على : الاسلام والحضارة العربية : ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٩٤